

الدرس الرابع: دعوة للتفكير في خلق الإنسان

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتني في الله، نحن على موعد مع التفكير في خلق هذا الكائن العظيم إنه الإنسان، فحينما يتأمل الإنسان على ما جاء في القرآن الكريم وهو الكتاب المنزل من الله تعالى على رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، يجد الكثير من الآيات القرآنية التي تكلمت عن خلق الإنسان بل سيجد العجب العجاب، ووجد فعلاً عظمة الله تعالى في خلق هذا الإنسان، هذا المخلوق العجيب، من يتصور أيها الفضلاء! أننا نحن هذا الكائن الغريب؟! هذه الأجسام العظيمة، هذه العقول، هؤلاء البشر الذين يمشون على الأرض من يتصور أن أصل هؤلاء جميعاً هو من نطفة؟! بل من نطفة قدرة يتقدر الإنسان منها لو رآها على ثوبه، لو وقعت على ملابسه لتقزز الإنسان منها، ولقد جاء في القرآن الكريم أن الإنسان خلق من سلاله من ماء مهين قال تعالى: {مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} [السجدة:8].

بل حتى القرآن أحياناً يذكر هذه الحقيقة على استحياء: {كَأَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ} [المعارج:39].

وجاء أيضاً قول الله تعالى: {رَبِّا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ (5) ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)} [الحج:5 - 7].

فالله سبحانه وتعالى يخاطب الناس كلهم فيقول لهم: يا أيها الناس إن كنتم في شك من أن الله يُحيي الموتى فأبنا خلقنا أباكم آدم من تراب، ثم تناسلت ذريته من نطفة، وهي المنى يُقذفه الرجل في رحم المرأة، فيتحول بقدرة الله إلى علقة، وهي الدم الأحمر الغليظ، ثم إلى مضغة، وهي قطعة لحم صغيرة قُدر ما يُمضغ، فتكون تارة مخلقة، أي تامة الخلق تنتهي إلى خروج الجنين حيًا، وغير تامة الخلق تارة أخرى، فتسقط لغير تمام؛ لنبيّن لكم تمام قدرتنا بتصريف أطوار الخلق، ونبقي في الأرحام ما نشاء، وهو المخلوق إلى وقت ولادته، وتكتمل الأطوار بولادة الأجنة أطفالًا صغارًا تكبرُ حتى تبلغ الأشد، وهو وقت الشباب والقوة واكتمال العقل، وبعض الأطفال قد يموت قبل ذلك، وبعضهم يكبرُ حتى يبلغ سن الهرم وضعف العقل؛ فلا يعلم هذا المعمر شيئًا مما كان يعلمه قبل ذلك. وترى الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات تفتح عنه، وارتفعت وزادت لارتوائها، وأنبتت من كل نوع من أنواع النبات الحسن الذي يسرُّ الناظرين. ذلك المذكور مما تقدّم من آيات قدرة الله تعالى، فيه دلالة قاطعة على أن الله سبحانه وتعالى هو الرب المعبود بحق، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وهو يُحيي الموتى، وهو قادر على كل شيء. وأن ساعة البعث آتية، لا شك في ذلك، وأن الله يبعث الموتى من قبورهم لحسابهم جزائهم.

إخوتي في الله، من يصدق أن هذه النقطة الصغيرة المتعلقة بجدار الرحم تكمن فيها جميع خصائص هذا الإنسان المقبل من صفاته الجسدية وسماته من طول وقصر وضخامة وضآلة، وقبح ووسامة، وآفة وصحة، كما تكمن فيها صفاته العصبية والعقلية والنفسية، وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة في هذا الإنسان المعقد المركب الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر فلا يتماثل اثنان في هذه الأرض على الإطلاق، وهذه من أعجب الأشياء، هذه النقطة الصغيرة كل البشر لا يمكن أن يأتي اثنان متشابهان في كل الأشياء، مستحيل.

قد يتشابه اثنان مثلاً في لون الوجه، في لون العينين، في بعض الملامح البارزة لكن لا يمكن أن يتفق على وجه الأرض منذ فجر الخليقة

إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا يمكن أن ترى اثنين يتشابهان في كل الأمور، وفي كل الصفات.

أخي الحبيب، إن حكمة الخلق لا يمكن أن يتعرف عليها الإنسان بذاته، فلا بد أن يتعلم هذه الحكمة من الذي خلقه، وأنت أيها الإنسان لم تخلق نفسك، قال الله تعالى في القرآن: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36)} [الطور: 35 - 36] إن خالق الإنسان وخالق الكون هو الله الذي لا إله إلا هو الذي قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الزمر: 62 - 63].

والمحال الأعظم أن يخلق الله عز وجل هذا الكون وهذه العوالم، سماوات وأرض، وبحار، ونجوم، وجبال وشجر، ودواب وأنعام، وليل ونهار عبثاً، محال أن يخلقها الله عبثاً.

يقول الله عز وجل: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: 115 - 116].

إن الله عز وجل ما خلقك عبثاً، بل خلقك لحكمة، هذه الحكمة تعرفها من قول الله عز وجل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56] هذه حكمة خلقك، وهذا سبب وجودك: أن تعمر هذه الحياة بعبادة الله: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)} [الذاريات: 58].

الرزق مكفول، والعمر محدود، والإمكانات موفرة، والمنهج واضح، والطريق مستقيم، وأنت مأمورٌ أن تسير على هذا المنهج، وأن تواصل السير على هذا الطريق المستقيم، وألا تلتف أو تتحرف؛ فإنك إن انحرفت عن هدي الله وعن طريق الله، كان المصير دماراً وعذاباً في الدنيا، ودماراً وبواراً في النار، قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ

مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) { [الإنسان: 2 - 5].

فيخاطب الله سبحانه وتعالى البشرية قائلاً: إنا خلقنا الإنسان من نطفة مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة، نختبره بالتكاليف الشرعية فيما بعد، فجعلناه من أجل ذلك ذا سمع وذا بصر؛ ليسمع الآيات، ويرى الدلائل، إنا بيئنا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر؛ ليكون إما مؤمناً شاكراً، وإما كفوراً جاحداً. إنا أعتدنا للكافرين قيوداً من حديد تُشدُّ بها أرجلهم، وأغلالاً تُغلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم، وناراً يُحرقون بها. إن أهل الطاعة والإخلاص الذين يؤدون حق الله، يشربون يوم القيامة من كأس فيها خمر ممزوجة بأحسن أنواع الطيب، وهو ماء الكافور.

تعلموا هذه الحقيقة من الله، أنكم ما خلقتم عبثاً؛ لأن العبث محال على الله، بل العبث غير لائق بك أيها الإنسان! لو بنيت جداراً في بيتك، أو صممت عملاً في محيط اختصاصك، ثم سألك أحد الناس، وقال لك: لم هذا؟ فقلت: عبثاً، أليس نقصاً في رجولتك؟ أليس قدحاً في عقليتك أن تعمل شيئاً عبثاً بدون حكمة؟ نعم، قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً} [طه: 124] أي ومن تولى عن ذكري الذي أذكره به فإن له في الحياة الأولى معيشة ضيقة شاقة - وإن ظهر أنه من أهل الفضل واليسار -، ويضيّق قبره عليه ويعذب فيه، ونحشره يوم القيامة أعمى عن الرؤية وعن الحجة، والله ولو امتطى أحدث الموديلات، ولو امتلك ملايين الدولارات، ولو نكح أجمل الزوجات، ولو سكن أرفع العمارات، ولو احتل أعلى وأعلى الرتب والمناصب، وقلبه بعيد عن الله، فإن هذه كلها لا تزيده إلا عذاباً (66)، وصدق الشاعر حين قال:

فيا عجا كيف يعصى الإله والله في	...	أم كيف يجحده الجاحد كل تسكينه
كل تحريكة وفي وفي كل شيء له آية	...	أبدأ شاهد تدل على أنه الواحد
	...	

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *